اليقظة الروحية لرابعة العدوية

الأستاذة:معاش الضاوية
جامعة تلمسان

يرجع المؤرخون، ظهور التصوف، إلى القرن الثاني للهجرة.هذاالأخير،الذي عرف فيه العالم العربي الإسلامي، عدّة تغيرات في شتى الميادين.وذلك بعد الفتوحات الإسلامية، وما نتج عنها من إنهيار للإمبراطورية الفارسية، والرومانية. مما جعل جزء كبير من المناطق، كالشام، ومصر، والشمال الإفريقي، والتي كانت خاضعة لهما ، تخضع للحكم الإسلامي. فانضمام هذه المناطق للعالم الإسلامي ، أدى إلى إزدهار الحياة الإقتصادية والإجتماعية به . وقد أدى هذا إلى إرتفاع المستوى المعيشي للأفراد . فتذوقت الناس طعم النعيم، والترف وإمتلأت قلوبهم بالوهن، فأصبحوا يتفننون في المآكل والمشارب، والمناكح، ويتنافسون في جمع المال ، ويتباهون بالجاه والسلطة ، وإقتناء الجواري .

وفي مقابل هذا التكالب على الدنيا وبهرجها، من قبل هؤلاء، برزت إلى الوجود شريحة أخرى من الناس معارضة

تماما لسلوك الشريحة الأولى . فكان سلوكهم هو الإعراض عن الدنيا والزهد فيها ، وفي مغرياتها . مقلدين في ذلك سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وصحابته الكرام(1) .

وهذا، ما يؤكده العلامة «عبد الرحمن بن خلدون»، في مقدمته الشهيرة . فبعد تحديده لمفهوم التصوف ، يكشف عن العوامل، والأسباب المؤدية إلى ظهوره فيقول:« ... التصوف هو العكوف على العبادة، والإنقطاع إلى الله، والإعراض عن زُخرف الدنيا، وزينتها، والزهد فيها، والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني ومابعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، إختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية، والمتصوفة... » (2).

وقد ظهر، في هذا القرن -الثاني للهجرة-، مجموعة من الزهاد المتصوفة، أمثال :

«الحسن البصري» ،و«إبراهيم بن أدهم» ،و«سفيان الثوري» ،و«مالك بن دينار»، و« إبن أبي عُيينة» ،و«رباح بن عمرو القبسي» ... وغيرهم .

وإلى جانب هذه القائمة من الرجال المتصوفة، برزت في هذا العصر، إمرأة كانت نموذجا للزهد والورع، ومثالا للإخلاص والتقوى، إنها «**رابعة العدوية**»، هذه الأخيرة التي هي موضوع بحثنا هذا ، والذي نريد الكشف من خلاله ، عن شخصية هذه المرأة العظيمة وذلك بطرح مجموعة من التساؤلات ، ومحاولة الإجابة عنها :

فمن هي رابعة العدوية؟.، وكيف كانت نشأتها الإجتماعية قبل التصوف؟.، وما هي الأسباب والعوامل التي كانت وراء تصوفها ؟.، وأخيرا ما هو مذهبها في التصوف ؟.

أولا: مولدها ونسبها

كان «الجاحظ»، أول من كتب مؤرخا «لرابعة العدوية»، مبّينا نسبها قائلا:« ... أنها من آل عُتيك بنوعدوة، ولهذا تسمى بالعدوية، وأما كُنيتها فهي أم الخير بنت إسماعيل... » **(3)**.

ولدت رابعة العدوية في البصرة، أما عن تحديد سنة ميلادها، فقد أُختلف فيها، فمنهم من يحددها بسنة **95 هـ** ، ومنهم من يحددها بسنة **99 هـ** . وكان ميلاد «رابعة» في كوخ

من أكواخ الفقراء، حيث كان أبوها فقيرا، وزاهدا. وأسماها «رابعة»، لأنها كانت الرابعة في بناته(4).

ثانيا: بيئتها، ونشأتها الاجتماعية قبل التصوف

ولدت «رابعة العدوية»، ونشأت بالبصرة، هذه الأخيرة التي كانت في عصر «رابعة»، مركزا لإشعاع العلم ومرتعا لطلاُبه، وملجأ لمتصوفيه وزهّاده . وعلى النقيض من ذلك كانت مكانا للمغريات المادية منها، والمعنوية .

فانتشار المساجد والكتاتيب القرآنية، والمدارس العلمية، كان يقابله إنتشارا كبيرا لأماكن اللهو والفساد. فحسب بعض المؤرخين، فان مدينة البصرة في عهد «رابعة العدوية» قد جمعت بين شتى المتناقضات . بين الفقر المُدقع والغناء الفاحش، بين الزهد والعبادة، وبين الترف والبذخ.وُيرجع البعض هذا التناقض إلى كثرة الحروب والمنازعات الأهلية والقبلية بها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، إلى إزدحامها بالسكان وإختلاط العرب فيها بعدد كبير من الموالي(5) .

ومن الناحية الإقتصادية، فان البصرة في زمن «رابعة»،عرفت أوجّ إزدهارها. نظرا لأنها كانت مركز التجارة

البحرية للعرب. والتي توسعت حتى بلغت بلاد الصين .وقد نتج عن هذا التقدم الإقتصادي تقدما علميا، حيث إزدهرت بها الحياة العقلية ،وظهر فيها، وفي الكوفة الخط العربي.

وبين القرنين، الأول، والرابع، تبلورت الثقافة العربية الإسلامية بها، وظهر العديد من النحويين، والمؤرخين، والشعراء، وعلماء الدين. ووطّد «الحسن البصري» ومريدوه دعائم التصوف بها. وهو ماجعل المستشرق الفرنسي «ماسينيونMassignon»، يقول عنها: «...بأنها البوتقة الحقيقية التي إتخذت فيها الثقافة الإسلامية شكلها... » (6).

ففي ظلّ هذه البيئة الاجتماعية، وُلدت «رابعة العدوية»، وترعرت. وباتحاد العوامل البيئية، مع العوامل الوراثية، والنفسية، تشكلّت شخصيتها وتبلورت .

فقد حفظت القرآن الكريم في سن مبكرة . وكانت تجمع بين الجمال الخَلقي، والخُلقي، هذا بالإضافة إلى إمتلاكها صوتا بالغ الروعة، كما كانت بالغة الذكاء .ومات والدها وهي صغيرة، ثم بعد مدة ليست بالطويلة لحقته أمها .

وبقيت «رابعة»، وأخواتها الثلاث، يتذوقون مرارة اليتم، وبؤس الفقر. فتحالفت الأقدار، مع ظروف الزمان آنذاك عليهن . حيث عمّ قحط كبير بالبصرة، فتفرقت الأخوات، وكل واحدة منهن إختارت لها طريق، إن لم نقل أُرغمت على إتباع طريق ما .

وقد أُكرهت «رابعة»، على إتباع طريق الرق، فقُدّر لها أن تؤسر وتباع بثمن بخس مثلما بيع يوسف عليه السلام . حيث أخذها أحد التجار عُنوة وباعها لرجل فظ غليظ القلب بستة درهم (7) .وهنا دخلت «رابعة العدوية»، عالما آخر، غير عالمها الذي كانت تعيشه في حياتها الحرة .

ثالثا :اليقظة الروحية لرابعة العدوية، وعواملها

يُرجع «فريد الدين العطار»، تصوف «رابعة العدوية»، إلى ما عانته هذه المرأة من إضطهاد وتعسف سيّدها، ولا سيّما إرغامها وإكراهها على مجالسة الغرباء، والغناء لهم فكانت دائما تبث حزنها إلى ربها، وتشكوه تسلط، وظلم هذا السيد الماكر . وذات مرة وبينما هي تجوب في شوارع البصرة، سمعت هاتفا يقول لها :

«...لا تحزني، ففي يوم الحساب يتطلع المقربون في السماء إليك، يحسدونك على ماتكونين فيه... » **(8)**.

وقد كانت هذه البشرى «لرابعة»، بمثابة الدعم النفسي، والغذاء الروحي لها، لمقاومة ظلم وجور سيدها، وأصبحت متيقنة أن الله سوف ينقذها، من إستبداده عاجلا أم آجلا.

هذا هو تفسير «فريد الدين العطار»، والذي ربطه بمتغيرين أساسين هما : الإضطهاد، والتحرر.حيث فسُر بالمتغير الأول، سلوكها الإنحرافي . وفسّر بالمتغير الثاني سلوكها التصوفي .

أما الدكتور»عبد الرحمن بدوي»، فله رأي آخر فيما يخص هذا الموضوع . فهو يفترض أن «رابعة»، لما أُعتقت إندفعت بفضل الحرية التي وُهبت لها، إلى المشاركة في الحياة الدنيا، وما تقتضيه هذه الحياة، من طلب رزق، وتحصيل معاش. فلم تجد غير حرفة العزف عن الناي والإطراب. وقد ساعدها على ذلك، كونها كانت ذات مزاج فني ممتاز، بحكم طبيعتها الروحية العالية. وهو ما نشاهده عموما ، في حياة النسوة اللائي

وهبن قدرا من سمو الروح، أنهن يحترفن الفن ، إذا ما قضي عليهن بتلمس أسباب الرزق بوسائلهن الخاصة . (9) .

ويذهب «بدوي»، في تحليله هذا، إلى أبعد من ذلك، مفترضا بأن تكون «رابعة» ، إبان هذه الحياة الفنيّة، بما تقتضيه من ملابسات، قد إندفعت في طريق الشهوات إلى مدى بعيد ... وأنها قطعت شوطا طويلا في طريق الإثم، ودليل ذلك أنها تابت فيما بعد... فهذه التوبة نفسها هي أصدق دليل .

ويدعم موقفه هذا، بذكر أمثلة من التاريخ، قائلا: «...بأن الإعتدال لا يمكن مطلقا أن يؤدي إلى التحول الحاسم -conversion-. فهذه الإنقلابات الروحية الكبرى إنما تقع دائما نتيجة لعنف، وإفراط، ومبالغة في الطرف الأول المنقلب عنه . فعنف إيمان القديس «بولس»مثلا، كان نتيجة لعنف إنكاره للمسيحية .وعنف الحياة التقية لدى القديس «أوغسطين»، كان لازما طبيعيا لعنف الحياة الشهوانية الحسيّة التي عاشها من قبل.

هذا ويشيد الدكتور»عبد الرحمن بدوي»، بالسلوك التطرفي،محتقرا السلوك المعتدل قائلا :« ...والإعتدال من شأن الضعفاء والتافهين، أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين

يبدعون ويخلقون التاريخ . وما كان لرابعة أن تتطرف في إيمانها وحبها لله، إلا إذا كانت قد تطرفت من قبل في فجورها، وحبها للدنيا ... لهذا أدعو إلى التطرف المطلق كل من يريد أن يكون خالقا للقيم.. » !!(10).

فهذا هو تحليل «بدوي»، لعوامل اليقضة الروحية «لرابعة»، والتي كان يتحكم فيها متغير واحد، ألا وهو التطرف !! . هذا الأخير، الذي جعله «بدوي» قانون عام، يفسّر به كل الظواهر المشابهة لظاهرة، «رابعة العدوية» .

وقد تصدق النظرية التطرفية لـ«بدوي» ، على بعض الحالات المماثلة لحياة «رابعة»، ولا تصدق على حالات أخرى .فتصدق مثلا، هذه النظرية على قصة السيدة «زوليخة»، زوجة عزيز مصر، في حبها التطرفي ليوسف عليه السلام .هذا الحب الذي جعلها تكيد له كل المكائد، للنيل منه . وعندما فشلت ، ويئست من حبه . إعتزلت الدنيا وما فيها ، وأقبلت على العبادة، وتحول ذلك الحب، من حب للمخلوق إلى حب للخالق ، وكانت درجة الحب الأخير، بنفس درجة الحب الأول

أو أكثر. وحتى بعد زواجها من «يوسف» عليه السلام ، فان هذا لم يؤثر أبدا على حبها لله .

كذلك، نفس الشيء بالنسبة لـ «عمر بن الخطاب»، رضي الله عنه ، فكرهه التطرفي للإسلام ، أدى به إلى إعتناق الإسلام، وحبه له بشكل تطرفي .

لكن هذه الأمثلة قد تصدق فقط، إذا أخذنا برأي «بدوي» ، والذي يرى فيه، أن إنحراف «رابعة»، بدأ بعد تحررها. أما إذا أخذنا بقول «فريد الدين العطار»، والذي ينفي إرادة هذه المرأة في إنحرافها السلوكي. فان هذه النماذج التي ذكرناها أعلاه ، وحتى تلك التي إستدل بها «بدوي»، في تحليله، لا يمكن تشبيهها بأي حال من الأحوال، بقضية «رابعة» وذلك لسبب بسيط ، ولكنه فارق كبير. فهؤلاء ، كانوا مخيّرين في تطرفهم الأول، لا مسيّرين، ولامجبروين .في حين أن«رابعة العدوية»، كانت في تطرفها الإنحرافي ، مجبرّة ومكرهّة .

أما الحالات التي لا تصدق عليها نظرية «بدوي» في التطرف، هي حالة «فرعون» ، ملك مصر ،وتطرفه في الكفر.

لدرجة إدعائه الربوبية !! . فتطرفه هذا، لم يؤد به إلى تطرف في الإيمان ولا في العبادة .

وقد تعرض تحليل «بدوي» هذا، وتفسيره لمسألة تصوف «رابعة» ، إلى الكثير من الإنتقادات . أهمها ردّ الدكتور «عبد المنعم الحفني»، في كتابه: «رابعة العدوية إمامة المعشوقين والمحزونين» ،و الذي إنتقد من خلاله رأي «بدوي» ، قائلا: «...هذا هو رأي الدكتور بدوي ....وهو يصدر عن مذهب في التاريخ يقوم على الفروض والإحتمالات . وذلك قد يكون صحيحا إلا أنه بشروط كما يقول «توينبي»، فلا بد أن تأتي الفروض والإحتمالات من مقدمات صحيحة، ولا بد أن تكون هناك إرهاصات لما سيقدم من سلوكيات مستقبلية عن الشخصية المؤرخ لها ... ولا أرى إلاّ أن «بدوي»، إعتسف الفروض والنتائج، وكان حاله كما قال «سارتر»، عن الشيوعيين في فرنسا، أنهم يجبرون الأحداث على الدخول في فروضهم الفلسفية .فما لا يتوافق معها ذهبوا إلى إنقاصه من هنا وهناك، أو الزيادة فيه، ليناسب قوالب فروضهم، وتكون النتيجة أن الحدث يشوّه، وذلك نفسه، ما أعتقد أن «بدوي»، قد

فعله مع «رابعة العدوية»، ومع كثير من الشخصيات الفلسفية التي تناولها بالتأريخ والتحليل.. » .

ويضيف «الحفني»، قائلا :«...والدكتور «بدوي»، يصدر في أحكامه عن أفكار مسبقة، ويختار من الشخصيات ما يظن أن مذهبه الفلسفي(*) ينسجم معها عند التطبيق . وكتاب «رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهي»، لم يكن سوى تطبيق من هذه التطبيقات الفلسفية الكثيرة، والتي يلجأ إليها لإثبات صحة مذهبه الفلسفي (11) .

أما الدكتور»مأمون غريب»، فيرفض هو الآخر ما ذهب إليه الدكتور»بدوي»، في تفسيره ليقضة «رابعة»، الروحية. بأنها غرقت في الرذيلة حتى الثمالة مبررا ذلك، بعملها الفني. هذا العمل – حسب بدوي-، الذي يدفع بالضرورة صاحبه إلى إتباع طريق الشهوات وإرتكاب المعاصي .

فيرد عليه الدكتور «مأمون غريب»، قائلا :« ...وكأنه لا بد لكل من يعزف الناي أو يحترف الغناء، أن ينحرف إنحرافا جارفا في دنيا الشهوات والملاذ !! ... إنه من المنطق أن إمرأة جميلة، تجيد العزف على الناي، والغناء أن تجد من يهبها من

العطايا والهبات ما يعينها على الحياة، دون أن تنحرف الإنحراف الحاد الذي أشار إليه الدكتور»عبد الرحمن بدوي»(12).

وبعد هذا النقد، يقدم الدكتور»مأمون غريب» تفسيره وتحليله للعوامل، والأسباب التي كانت وراء اليقضة . فهو يرى أن هذه المرأة، لم تكن تمارس الغناء والعزف، ولم تنحرف، لأنها كانت أسيرة لرغباتها وشهواتها. وإنما كانت تفعل ذلك، لكونها كانت أسيرة سيّدها، فهي بذلك تخضع لأوامره ورغباته،غير أن نفسها كانت تتوق إلى التوبة وروحها كانت تتوق إلى الحب الإلهي (13).

ويقدم «مأمون غريب»، الدليل لإثبات أقواله هذه، من خلال مارواه بعض الكُتّاب الذين تناولوا سيرتها، وهو قولهم: أن سيّد «رابعة»، أجبرها ذات مرة أن تجالس الناس، فهربت في طريق البصرة، وتوجهت بكل كيانها لله، تناجي ربها أن ينقذها من هذه الرذيلة التي أقحمت فيها . وهي التي نشأت في كنف أسرة متدينة وحفظت القرآن الكريم وهي صغيرة.

ويضيف الدكتور»مأمون غريب» قائلا، ومن الأدلة والبراهين التي تدل على أن «رابعة»، لم تكن راضية عن حياتها

تلك، (حياة الغناء واللهو)،هو ما يذكره، بعض المؤرخون، بأنه في ليلة من الليالي، فاق سيّدها من نومه فنظر من فتحة، في باب حجرتها، فرأى قنديل معلق في سماء حجرتها، وسمعها وهي تدعو ربها تناجيه «..إلهي، أنت أعلم بأن قلبي يتمنى طاعتك، ونور عيني في خدمتك، ولو كان الأمر بيدي، ما انقطعت لحظة عن مناجاتك، وخدمتك ، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبادك... » **(14).**

فهكذا، جاءت آراء الدكتور»مأمون غريب»، مؤيدة لرأي «فريد الدين العطار»، ومخالفة لرأي الدكتور»بدوي». في ما يخص العوامل، والأسباب التي كانت وراء يقضة «رابعة»، الروحية.

لقد كانت هذه أهم الآراء، التي تعرضت بالتحليل، والتفسير، والنقد، لمسألة توبة «رابعة العدوية»، ويقضتها الروحية . وهي كلها تحاليل ، تتفق في معظمها، على أن «رابعة العدوية»، كانت مسلوبة الإرادة، في سلوكاتها، وتصرافتها المنحرفة ، كون أنها كانت في حكم الرق . ما عدا الدكتور «بدوي» ، الذي يرى العكس. وهو أن إنحراف «رابعة» ، بدأ مع بداية إنعتاقها وتحررها.

أما نحن، فلنا رأي آخر في هذه القضية . فتحليلنا لمسألة يقضة «رابعة» الروحية، هو تحليل يأخذ من نظريات التنشئة الإجتماعية، و نظريات التحليل النفسي مرجعا له .

فحسب «سيجموید فرويد»، أن الشخصية هي عبارة عن نظام نفسي مكون من طبقات مثل البناء، بحيث تعتمد طبقاته العليا على السفلى. ولهذا فان تكوينها يعتمد بدرجة كبيرة على خبرات الفرد السابقة . (15).

وتؤكد هذه النظريات، على أن مرحلة الطفولة، هي المرحلة التي تزرع فيها بذور شخصية الفرد، ويتحدد إطارها العام، وهي المرحلة التي يتكون خلالها الضمير الواعي، وذلك لأن الطفل يكون في طور التكوين والإكتساب. كما أن عقله يتصف بالمرونة وتقبل الإتجاهات الجديدة، ولذلك فان هذه المرحلة تتطبع فيها الخبرات التي يمر بها الطفل وتظل ثابتة إلى حد كبير طوال مراحل حياته المقبلة(16) .

فانطلاقا من هذه النظريات، نرى أن «رابعة العدوية»، كما روى عنها الباحثون، نشأت، وترعرت في أسرة متدينة . وحفظت القرآن في سن مبكرة. والأكثر من هذا أنها كانت على قدر كبير من الأخلاق، و الإيمان، والوعي .

والدليل على وعيها، هو ماذكره «إبن خلكان» من أن «رابعة»، قالت لأبيها ذات مرة وهي طفلة صغيرة :« ... يا أبتي لست في حلّ من مال حرام تُطعيمنيه.. » ! فقال الأب:« ...أرأيت إن لم أجد إلاّ حراما ! . فأجابت إجابة الناضج الحكيم«... نصبر في الدنيا على الجوع خير من أن نصبر في الآخرة على النار... ! » (17)

أجل، هكذا كان جوابها. وهكذا كانت عقيدتها . فأي وعي هذا ؟ !، وأي منطق تفكر به فتاة في مثل هذا السن؟ ! .

وعليه، وإنطلاقا من هذه النظريات، يمكن القول بأن سلوك «رابعة»، الإنحرافي، سواء كان نتيجة رغبة وإرادة منها . أو هو نتيجة لإكراه وإضطهاد سيّدها ، ما هو إلاّ سلوك عارض، وليس جوهري، بدليل أنه زال، وإختفى، بزوال، وإختفاء الظروف التي أوجدته .

فالجوهري في شخصية «رابعة العدوية»، هوالإيمان، والتقوى، والصبر، والفضيلة . وهي كلها قيم دينية تشرّبتها هذه المتصوفة في أسرتها، وشبّت عليها. وهي نفس القيم التي تمثلتها في حياتها اللاحقة، وزادت عنها وعززّتها . أي أن هذه القيم كانت مكبوتة، أونائمة في وجدان هذه المرأة ، وبمجرد تحررها، إستيقضت فيها هذه القيم . وكانت درجة هذه اليقضة

عنيفة، عنف هذا الكبت. هذا هو حسب رأينا، العامل المحدد ليقضة «رابعة»، الروحية.

أما بالنسبة لدرجة قوة هذه اليقضة ، وإندفاعها الشديد لطاعة الله تعالى، ومغالاتها في العبادة ، فان العامل الذي نفسر به كل هذا، هو الحرمان. ولا نقصد هنا، الحرمان الروحي القلبي، وإنما هوالحرمان الروحي الظاهري، أي السلوكي. لأن الأول مرتبط بالعقيدة، والإيمان، وهي لا شك أنها كانت تمتلك عقيدة صحيحة، وإيمان قوي، بدليل أنها كانت غير راضية على سلوكاتها وتصرفاتها، التي كانت تقوم بها وهي في حكم الرق. ولذلك كانت عند إختلائها بنفسها تستغفر ربها، وتناجيه أن يفك أسرها، لكي تستطيع عبادته، عبادة باطنية و ظاهرية

فحسب رأينا، أن هذا الحرمان كان له دور واضح، وراء إقبالها الكبير على العبادة بعد تحررها من قيود الرق .فكما يقولون، «تعرف الأشياء بأضدادها». فـرابعة العدوية، لم تكن تستطيع القيام بفرائضها الشرعية بحرية . فلا المكان ولا الزمان ملكا لها . فهي من حيث المكان، تعيش في بيت سيّدها، وبالتالي فان كل سلوكاتها كانت مراقبة، أما من حيث الزمان،

فهي لا تستطيع أن تستغل وقتها كما تشاء ، وكيف تشاء، وفي ما تشاء . فكل وقتها يُصرف في خدمة سيدها، ووفقا لرغباته وميولاته .

حتى، وإن إفترضنا ، أنها تستطيع ممارسة هذه الفرائض بكل حرية ، فان هذا، أكيد ، سوف يدخلها في صراع، نفسي حاد . وهو صراع التناقض ، بين ما تؤمن به من قيم، وأخلاق، وعفة ، وبين ما تفعل عكسه في الواقع .

إذن كل هذا، يمكن إعتباره حرمان عانت منه «رابعة العدوية» ، وهو حرمان ديني أخلاقي . فحسب إعتقادنا، أنه على قدر ما كان هذا الحرمان، على قدر ما كانت رغبة «رابعة»، في التوبة كبيرة، والمغالاة في عبادة ربها شديدة . ولهذا فبمجرد أن تحررت، وعرفت قيمة هذه الحرية، لجأت إلى تعويض ما كانت محرومة منه من قبل. وكان التعويض قوي، قوة ذلك الحرمان

.رابعا :مذهبها في التصوف :

عندما تحررت «رابعة العدوية» من قيود الرق، وعبوديته، أصبحت تتردد على مساجد البصرة، وهنا إلتقيت بزُهادها

ومتصوفيها . وأول من صادفها من المتصوفة هو «رباح القيسي»، هذا الأخير الذي عبّد لها طريق التصوف، وأنار لها دربها، وعرّفها على متصوفة وزهّاد عصرها أمثال:»مالك بن دينار»، و»سليمان الثوري»، و»عبد الواحد بن زيد» (شيخ رباح القيسي)، و» إبراهيم بن أدهم» .. و»الحسن البصري «وغيرهم (18) .

((يذكر المستشرق الفرنسي «ماسينيون Massignon « ، في كتابه أصول الإصطلاحات الصوفية ، أن «رابعة العدوية» لم تكن تلميذة «للحسن البصري «، لأنها حسب بعض الروايات ولدت في العام الذي بدأ فيه «الحسن البصري مجالس تعليمه .وذلك يوافق سنة 95 هـ ، أو 96))(19) .

وقد أخذها «رباح القيسي»، إلى سيدة زاهدة، عُرفت بحسن عبادتها وتقواها، تدعى «حيونة»، هذه الأخيرة التي كانت هي أيضا تلميذة «لعبد الواحد بن زيد» . فتأثرت «رابعة» بمذهب «حيّونة»، في التصوف، وهو مذهب الحب الإلهي، فكانت هذه أولى خطوات

«رابعة العدوية»، إلى الحياة الروحية الخالصة (20) .

فحسب الشيخ « مصطفى عبد الرازق «، أن «رابعة العدوية»، هي أول من هتف في رياض الصوفية بنغمات الحب شعرا ونثرا (21)

. وهي السبّاقة إلى وضع قواعد الحب والحزن في هيكل التصوف الإسلامي، وهي التي تركت في الآثار الباقية نفثات صادقة في التعبير عن محبتها وعن حزنها .وإن الذي فاض به الأدب الصوفي بعد ذلك من شعر ونثر، في هذين البابين، لهو نفحة من نفحات السيدة «رابعة العدوية» إمام العاشقين والمحزونين في الإسلام(22).

رابعا / 1 : نظرية الحب الإلهي عند «رابعة العدوية»

يقول «أبي حامد الغزالي»، في كتابه» الإحياء»، عن الحب الإلهي :« .... إنّ المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات . وإنه ما بعد إدراك المحبة مقام، إلاّ وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها ، وذلك كالشوق والرضا . ولا قبل المحبة مقام ، إلاّ وهو مقدمة من مقدماتها ، كالتوبة والصبر والزهد .. » (23)

إن ما يستنتج، من هذا التعريف، هو أن المحبة الإلهية لها مؤشرات، وذلك من خلال المقامات، فمؤشر بدايتها هو مقامات مثل، مقام التوبة، والصبر، والزهد، ومؤشر إدراكها مقامات أيضا ، مثل: مقام الشوق والرضا ...وغيرها .

وعندما نطبق هذا التعريف على فلسفة رابعة العدوية في الحب الإلهي، نجد أن هذا الحب تتوفر فيه شروط المحبة الإلهية ، كما وضعها الإمام «أبي حامد الغزالي» .

فحبها لله سبقه توبتها، وصبرها وزهدها . ووصولها لمقام المحبة جعل غايتها القصوى في العبادة، هي رؤية وجه الله . وهذا ما عّبرت عنه، عندما سألها «سفيان الثوري»، عن حقيقة إيمانها فقالت :« ..ما عبدته خوفا من ناره، ولا حبا في جنته فأكون كأجير السوء إذا خاف عمل، بل عبدته حبا له وشوقا إليه.. » .

نعم، هذه هي فلسفة «رابعة العدوية»، في التصوف، وهذه هي نظريتها في الحب الإلهي . «فرابعة» لم تكن تعبد الله تحقيقا لغرض، فحبها له ، كان مجردا من كل مصلحة وغاية، وإنما كانت تعبد الله حبا له. وتعتبر هذه مرتبة روحية من أسمى مراتب التصوف عند الذين أتو من بعدها (24).

ومن الأشعار التي تغنت بها «رابعة»، في الحب الإلهي ما يلي:

أحبك حُبين حُبُ الهوى.
وحّبُ لأنك أهلُ لذاك.
فأما الذي هو حُبُ الهوى فشُغلي بذكرك عمّا سواك.
وأمّا الذي أنت، أهل له فكشفك لي الحُجب حتى أراك.

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي.
ولكن لك الحمد في ذا وذاك.(25)

ولقد فسّر الغزالي هذين الحبين، بما يكشف عن طبيعة كل منهما، وعن الدوافع التي تدفع إليه، والغاية التي يقصد من ورائهما ، فقال :« ...لعلّها أرادت القول بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها، وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة .وبحبه لما هو أهل له، الحب لجماله وجلاله الذي إنكشف لها، وهو أعلى الحبين وأقواهما . ولذّة مطالعة جمال الربوبية، هي التي عبّر الرسول (ص) عنها، بقوله، حاكيا عن ربه تعالى:» أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وإنما كان الحب الذي، الله أهل له أعلى الحبين، لأنه الحب الذي يقصد به وجه الله لذاته، دون أن يكون مشوبا بغرض ،أو موجها برغب أو رهب ،إلاّ أن يكون الرغب الذي يوجهه هو مشاهدة الله ومعاينة جماله الأزلي .

وحب الله لذاته، على هذا الوجه الثاني من وجهي الحب الإلهي، هو الذي كانت تتغنى به «رابعة»، وتأخذ قلبها به . حتى لقد أصبح لها مذهبا في الحياة الروحية، التي كانت تحاياها، ويحياها من تأثر

بها وبمذهبها، ممن جاء بعدها من الصوفية المتأخرين أمثال :»إبن الفارض»، و»ابن سبعين» ..وغيرهما(26).

رابعا / 2: طريقتها في الزهد

الزهد مقدمة للتصوف، وبابا للدخول فيه(27)، وكلاهما زيادة في العبادة المشروعة وإن كان الزهد من قبيل الزيادة الكمية، بينما التصوف من قبيل الزيادة النوعية، أو الكيفية، كونه مقاما من مقامات الطريق، أو السبيل الذي لا بد للمتصوف من سلوكه قبل أن يعدّ في زمرة الصوفية .

وقد نشأ لفظ «الصوفي»، في القرن الثاني للهجرة . وكان يطلق على العابد، الزاهد اللاّبس للصوف، ثم صار يدل مع ذلك، على العناية بحال القلوب إلى جانب التمسك بالعبادات الظاهرة .

وفي تاريخ «رابعة العدوية»، ما يدل على حرصها على العمل بهذه المعاني، فقد كانت تلبس الصوف، وتعيش في كوخ، بعيدة عن الخلق، وكانت من أزهد الناس في الدنيا روي»الشعراني»،أنها كانت ترد ما يعطيه،الناس لها وتقول«مالي حاجة بالدنيا. » (28).

فقد كانت هذه المرأة، مضرب المثل في الزهد، ومقامها فيه، هو المقام الأرفع . فكانت لا تأكل بالأسبوع، وتنسى الجوع ، وكانت وهي كذلك تصوم، وتصلي (29).

وكانت تزهد في الدنيا بكل مغرياتها المادية منها ،والمعنوية . كما كانت تفضل رضا الله على رضا العباد ، وحلاوة حبه على حلاوة حب الحياة ، وتقول في هذا المضمار:

فليتك تحلو والحياة مريرة
وليتك ترضى والأنامُ غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر
وبيني وبين العالمين خراب
إذا صحّ منك العزم فالكل هيّن
وكل الذي فوق التراب تراب (30).

رابعا / 3: أسلوبها في العبادة

الصوفي إنسان عابد، وهو في معراج الترقي يتسامى بغرائزه، وحاجاته ويتحول بطاقته الشهوية إلى تربية ذاته، فان ترقى عن ذلك فانه يتحول بها إلى الله، فتشغله محبته لله عن نفسه.

و»رابعة العدوية»، كامرأة صوفية، تمكنت من مجاهدة نفسها حتى صارت لها بمثابة الوطن. تجد فيه لذة قلبها، وراحتها. ويروى عنها، أنها كانت تصلي في اليوم ألف ركعة

وكانت تستغفر، وتبكي حتى ليكون دمعها مثل المستنقع تحتها(31).

وكانت تقول:

«...إستغفارنا يحتاج إلى إستغفار... » .

ومن وصاياها :

«أكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم » (32).

وكانت تنام نومة خفيفة حتى يسفر الفجر.ويروى، أنها، إذا ذهبت إلى مرقدها قالت :« ... يا نفسي كم تنامين، وإلى متى تنامين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلاّ لصرخة يوم النشور... » (33).

وسألوا «رباح القيسي»، ذات مرة في حضرة «رابعة»، هل طالت بك الليالي والأيام بالشوق إلى لقاء الله ؟ فسكت .ولكن «رابعة» أسرعت بالجواب : أمّا أنا فنعم !.

وقال «سفيان الثوري»، وهوعندها يوما: اللهم أرضي عني؟ . فقالت له : أما تستحي أن تطلب رضا من لست عنه براض؟! . فهي كانت راضية دائما وحالها في الرضا أنها تسرُّها المصيبة كما تسرها النعمة . سئلت مرة، متى يكون العبد راضيا ؟ فقالت :«..إذا سرّته المصيبة ، كما سرّته النعمة .. » (34).

رابعا/ 4 : نظريتها في الزواج

لقد إختلفت الآراء، والأقاويل بين الباحثين، حول مسألة زواج «رابعة العدوية»، من عدمه .فالدكتور»عبدالرحمن بدوي»، يرفض كل الآراء، التي أكدت زواج «رابعة العدوية»، في حين تؤكد الدكتورة «سعاد عبد الرازق» زواجها، وتفترض أن زوجها كان، «رباح القيسي» .

ويستدل «بدوي»، في نفيه لزواج رابعة، ما روي عنها حول تقدم أمير البصرة، «محمد بن سليمان الهاشمي»، لخطبتها، على صداق مقداره مائة ألف درهم، فكان جوابها ما يلي: <<... إن الزهد في الدنيا راحة البدن، والرغبة فيها تورث الهمّ والحزن، فهيء لمزادك، وقدّم لمعادك، ولا تجعل الرجال أوصيائك فيقسموا تركتك.وصم الدهر، واجعل فطرك الموت.وأما أنا فلو خولني الله أمثال ما حُزت، وأضعافه لم يسرّني أن أشتغل عن الله طرفة عين..>> .

فحسب «بدوي» فان ،»رابعة العدوية»، نذرت نفسها لله ، وإذا كان الزواج الحق هو زواج الحب، وحبيبها الوحيد هو الله، فاذا كان لها أن تقترن بأحد أبغير الله تستطيع الإقتران ؟ .

هنا تأتي نظريتها في الحب تؤيد نظريتها في الزواج، وهذا هو الجديد حقا في مذهب «رابعة العدوية» (35) .

وينتقد الدكتور»عبد المنعم الحفني»، قول»بدوي»، بأن «رابعة»، قد إقترنت بالله ، فذلك ما يصلح حسبه، للمسيحية. لوجود الناسوت بالله، ممتزجا باللاهوت . فأمكن من ثم أن يتصور المسيحي إمكان إتحاده هو نفسه بالله . وأما العشق الصوفي «لرابعة العدوية»، فهو إتحاد عقلي، يوجبه غفلة المحب عن الشعور بجملته، شغلا منه بشهود محبوبه (36).

ويحدد «بدوي»، الأسباب التي منعت «رابعة»، من الزواج في ما يلي:

أ-لأنها لم تكن ترى فيها ما يمكن أن يشتهيه الرجل.

ب-لأنها كانت زاهدة في الدنيا، فكيف يمكن أن يكون لها فيها الأهل والولد ؟.

ج-لأنها كانت في قلق وكرب من الآخرة، فكيف تحتاج إلى الزوج ؟ وتتفرغ له كما تقول.

د-لأنها كانت تجد راحتها في خلوتها .وهو ما عبرت عنه في الأبيات التالية:

راحتي يا إخوتي في خلوتي
وحبيبي دائما في حضرتي
لم أجد عن هواه عِوضا
وهواه في البريا محنتي

إلى أن تقول :

قد هجرت الخلق جميعا، أرتجي منك وصلا أقصى منيتي .

فهي منشغلة بالله عن الزواج ، ومن غير المستطاع أن تخدم سيدين.**(37)**

خامسا: وفاتها

يذكر «الزركلي»، في أعلامه أن وفاة «رابعة العدوية»، كانت بالقدس، وذلك سنة **135** هـ. **(38)**

وتروي «عبدة بنت شوال»، وهي التي كانت تخدم «رابعة العدوية»، عن ظروف وفاتها قائلة : فلمّا حضرتها الوفاة

دعتني، فقالت: يا عبدة لا تؤذني بموتي أحدا، ولفيني في جبتي هذه . قالت : فكفناها في تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه .

وبالرغم من أن «رابعة» أبت أن تزعج الناس بموتها، فقد أرسل الله لها طائفة من العبّاد، والصالحين، والصالحات إلتفوا حولها .

وبينما هي تحتضر، سمعوا صوت «رابعة»، وهي تنطق بالشهادة، فأجابها صوت مسموع :...يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وأدخلي جنتي (الفجر، 27–30) .

وقالت «عبدة»، رأيتها بعد موتها بسنة في منامي، عليها حُلّة، من إستبرق خضراء وخمار من سندس أخضر، لم أر شيئا أحسن منه. فقلت: يارابعة ما فعلت بالجبة التي كفنّاك فيها، وخمار الصوف؟. فقالت: إنه والله نُزع عني، وأُبدلت به هذا الذي ترينه عليّ، وطُويت أكفاني .. وخُتم عليها، ورُفعت في عليين لتكمل لي بها ثوابها يوم القيامة (39).

خاتمة

لقد إرتأيت أن تكون خاتمة هذا المقال، حول أهم الإنتقادات التي وُجهت لسلوك «رابعة العدوية» ، وطريقتها في التصوف، والأغلاط التي وقعت فيها. ومن بين هذه الإنتقادات ما يلي:

- إعراضها عن العلم شغلا، بالزهد. وقد عابت على «سفيان الثوري»، أنه يشتغل بالحديث وإعتبرت ذلك منه ميلا إلى الدنيا .

- إلتقائها بالرجال في بيتها، والصلاة معهم، ومجالستها لهم، يتحدثون عن المحبة أمثال:»سفيان الثوري « و»رباح القيسي» .. وغيرهم . وهذا لا يجوز شرعا.

- إمتناعها عن الزواج، بدعوى أن الزواج يميل إلى الدنيا، ولا خيار لها في نفسها، في حين أن الزواج أوصى به الله ورسوله.

-ومن أخطائها أيضا، أنها قالت «لرباح القيسي»، لما رأته يُقبّل صبيا من أهله ،»ما كنت أحسبك أن في قلبك موضعا فارغا لمحبة غيره . وكأن حب الأولاد يشغل عن حب الله !

-وكذلك يعاب على «رابعة» قولها :« ... إلهي، ماقدرته لي من خير في هذه الدنيا أعطه لأعدائك، وكل ما قدرته لي في الجنة أمنحه لأصدقائك. ففي كلامها هذا جزم على أنها من أهل الجنة، وهذا مخالفة لأمر الله تعالى ، الذي يقول :»لا تزكوا أنفسكم».

- ومن أغلاطها أيضا ، أنهم سألوها مرة ، هل تحبين الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقالت : إن حبي لله شغلني عن حب غيره. فلم يعد ثمّة مكان لمحبته. وسألوها: هل تكرهين الشيطان. فقالت : إنّ حبي لله ، منعني من الإشتغال بكراهية الشيطان (40).

الهوامش:

1-مأمون غريب،رابعة العدوية في محراب الحب الإلهي ،القاهرة:دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ،دط،2000 ،ص 11 .

2-عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، بيروت : دار مكتبة الهلال،دط،1988،ص295 .

3-عبد المنعم الحفني ،رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين،القاهرة:دار الرشاد ،ط2 ،1996 ، ص13.

4-مأمون غريب ،المهاجرون إلى الله ،القاهرة:مركزالكتاب للنشر،ط1 ،1988 ،ص48 .

5-عبد المنعم الحفني،رابعة العدوية إمامة العاشقين والمحزونين،مرجع سابق،ص67.

6-المرجع نفسه ، ص 70 .

7- أنظر:مأمون غريب، المهاجرون إلى الله ، مرجع سابق ، ص48 .

8-نفس المرجع،ص49.

9-عبد الرحمن بدوي،شهيدة العشق الإلهي رابعة العدوية،القاهرة:مكتبة النهضة المصرية،ط2 ،1962 ،ص16.

10- المرجع نفسه ،ص17 .

11-عبد المنعم الحفني ،رابعة العدوية إمامة المعشوقين والمحزونين ،مرجع سابق ،ص 73-74 .

(*)-إن المذهب الفلسفي الذي يعتنقه «بدوي» ، هو المذهب الوجودي «وهو نفس إتجاه الفيلسوف الألماني الوجودي «مارتن هايدجر» ، كما يقول «بدوي» نفسه.

12- مأمون غريب ، رابعة العدوية في محراب الحب الإلهي ،مرجع سابق ،ص35.

13 -المرجع نفسه ،ص41 .

14-المرجع نفسه ص 42-44 .

15-رانيا عدنان ،رشا بسّام ،التنشئة الاجتماعية ،الأردن: دار البداية ،ط1 ،2006 ،ص 20 .

16-عبد الرحمن العيسوي ،سيكولوجية التنشئة الاجتماعية،الإسكندرية: دار الفكر الجامعي ، دط ،1984-1985 . ص 21-22 .

17- عبد المنعم الحفني ،رابعة العدوية إمامة المعشوقين والمحزونين ،مرجع سابق ،ص 55 .

18- مأمون غريب ، رابعة العدوية في محراب الحب الإلهي ،مرجع سابق ،ص36.

19– مصطفى عبد الرازق ، ماسينيون «Massignon » ، التصوف ،بيروت: دار الكتاب اللبناني ، ط1 ، 1984 ، ص114 .

20–المرجع نفسه ، ص 37 .

21–محمد مصطفى حلمي، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي ،القاهرة : دار القلم ، دط 1960 ، ص 39 .

22– المرجع نفسه ، ص 130 .

23– مصطفى عبد الرازق ، ماسينيون «Massignon » ، التصوف ، مرجع سابق ص126 .

24– مأمون غريب، المهاجرون إلى الله ، مرجع سابق ، ص 53–54 .

25–المرجع نفسه ،55 .

26– محمد مصطفى حلمي، الحب الإلهي في التصوف الإسلامي ،مرجع سابق ، ص 95

27 – محمد بركات البيلي ،الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس ،القاهرة: دار النهضة العربية ، دط ،1993 ، ص 5

28– مصطفى عبد الرازق،ماسينيون «Massignon » ،التصوف،مرجع سابق ،ص 121

29– عبد المنعم الحفني ،رابعة العدوية إمامة المعشوقين والمحزونين ،مرجع سابق ،ص 153 .

30– المرجع نفسه ، ص81 .

31–المرجع نفسه ،ص 133 .

32– مصطفى عبد الرازق،ماسينيون «Massignon » ،التصوف،مرجع سابق ،ص 121

33–مأمون غريب، المهاجرون إلى الله ، مرجع سابق ، ص 51

34– عبد المنعم الحفني ،رابعة العدوية إمامة المعشوقين والمحزونين ،مرجع سابق ،ص134 .

35–المرجع نفسه ، ص 140 .

36–المرجع نفسه ، ص 144 .

37–المرجع نفسه ، ص 141–142 .

38–المرجع نفسه ،ص14.

39 – مأمون غريب، المهاجرون إلى الله ، مرجع سابق ، ص 62 .

40– عبد المنعم الحفني ،رابعة العدوية إمامة المعشوقين والمحزونين ،مرجع سابق ،ص 162–165 .